المجلس الرابع

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المتن:

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **بابٌ الإيمان باليوم الآخر:**

وَالْيَـوْمُ الآخِـرُ حَـقٌّ ثُـمَّ سَـاعَتُهُ ** بِمُنْتَهـى عِلْمِهَـا الـرَّحْمنُ مُنْفَـرِدُ
وَالْمَـوْتُ حَـقٌّ وَمَـنْ جَـاءَتْ مَنِيَّتُـهُ ** بـأي حَتْـفٍ فَبِالْمَقْـدُوْرِ مُفْتَقَـدُ
مَـا إِنْ لَـهُ عَنْـهُ مِـنْ مُسْـتَأْخِرٍ أَبَـدًا ** كَـلاَّ وَلاَ عَنْـهُ مِـنْ مُسْـتَقْدِمٍ يَجِـدُ
كُـلٌّ إِلـى أَجَـلٍ يَجْـرِي عَلَـى قَـدَرٍ ** مَـا لِامْـرِئٍ عَـنْ قَضَـاءِ اللهِ مُلْتَحَـدُ
وَفِتْنَـةُ الْقَبْـرِ حَـقٌّ وَالْعَـذَابُ بِـهِ ** لِكَـافِرٍ وَنَعِـيْمٌ لِلأُلَـى سَـعِدُوا

الشرح:

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: (**بابٌ: الإيمان باليوم الآخر**)؛ الإيمان باليوم الآخر أحد أصول الإيمان، وأحد أركانه العِظام، وسُمي بهذا الاسم لتأخره عن يوم الدنيا، وله أسماء كثيرة بحسب أوصافه وأحواله وأهواله.

واليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب، فاليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل، وللدنيا أبناء وللآخرة أبناء، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٦٤].

ويتعلق باليوم الآخر تفاصيل كثيرة جاء بيانها في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والواجب على كل مؤمن أن يؤمن بكل ما يتعلق باليوم الآخر.

وضابط ذلك أن يؤمن بكل ما ورد في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت؛ فإن من مات قامت قيامته، وبدأت في حقه أول منازل الآخرة.

ويذكر أهل العلم في الكلام عن الإيمان باليوم الآخر أشراط الساعة -كما صنع الناظم هنا-؛ لأنها تأتي مقدمات بين يدي الساعة مشعرةٍ بِدِنُوِّهَا وقُرب مجيئها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَالْيَوْمُ الآخِرُ حَقٌّ**): أي: حقٌّ كما أخبر الله، وواقع لا محالة، والناس صائرون إليه لا ريب في ذلك. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [سورة الحج، من الآية:٧]؛ فاليوم الآخر حق.

(ثُمَّ سَاعَتُهُ بِمُنْتَهى عِلْمِهَا الرَّحْمنُ مُنْفَرِدُ): ساعة اليوم الآخرأي: وقت قيام الساعة؛ هذا أمرٌ تفرد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعلمه. ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٦٣]؛ فتفرد جَلَّ وَعَلَا بالعلم بالساعة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٧]؛ فالعلم بالساعة ووقتها أمرٌ تفرَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعلمه.

وكل ادعاءٍ لوقتٍ معين تُقوم فيه الساعة يُثار بين وقتٍ وآخر؛ كل ذلك رجم بالغيب وقول بلا علم؛ فإن الساعة تفرد بالعلم بها رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، وليس للإنسان أن يبحث عن وقت مجيئها؛ بل عليه أن يبحث عن العُدَّة لمجيئها، كما لفت إلى ذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما سأله رجلٌ فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها؟**»، فالسؤال الذي ينبغي أن يطرحه الإنسان على نفسه طرحًا مستمرًا: ماذا أعددتُ للساعة؟

فالساعة آتية لا ريب فيها، وساعة الإنسان خروج روحه من جسده ومفارقته للدنيا، وقد تكون هذه المفارقة من الإنسان للدنيا، بعد يوم، أو يومين، أو شهر، أو شهرين.

فالسؤال الذي ينبغي أن يطرحه العبد على نفسه طرحًا متكررًا : ماذا أعددتُ للساعة؟

وأما وقت مجيئها فلا يُبحث؛ أمرٌ تفرد به رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا لما سأل هذا السائل عن وقت المجيء؛ شغله النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بما يعنيه من هذا الأمر، وما يلزمه أن يعتني به في هذا الباب وهو الاستعداد ليوم المعاد، والتزود ليوم الرحيل. قال: «**ماذا أعددت لها؟**».

ويضرب بعض أهل العلم مثالًا توضيحيًا لذلك مع الفارق، لكن المثال يُراد به التوضيح؛ قال: لو أن أُناسًا قيل لهم: العدو مقبل على بلدكم؛ فأخذ بعضهم يبحثون: أين وصل؟ كم باقي على وصوله؟ كم بيننا وبينه الآن؟ إيش المسافة؟ يطرحون مثل هذه الأسئلة، وآخرون لم يشتغلوا؛ قالوا: هو قادم قادم؛ إذًا نستعد، سواءً جاء اليوم أو بعد أسبوع؛ ما دام أنه قادم إذًا نستعد، فاشتغلوا بالاستعداد والتهيؤ؛ فأي الفريقين أهدى؟

ولهذا الساعة قادمة ومقبلة. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:٨]؛ أي: قادم إليكم، ومقبل إليكم، فلا يشتغل الإنسان بمتى؟ ولكن يشتغل بماذا أعد لهذا اليوم العظيم؟

قال: (**وَالْمَوْتُ حَقٌّ**): والموت يكون بقبض ملكُ الموتِ روحَ العبد، وخروج روحه من جسده، وهو حق لا ريب فيه، ومن إيماننا باليوم الآخر إيماننا بالموت وأنه حق، وأن كل نفسٍ ذائقته، وأن أي أحد من الناس لن يبقى؛ بل لابد أن يذوق الموت، وأن يفارق هذه الحياة؛ فالموت حق.

(**وَمَنْ جَاءَتْ مَنِيَّتُهُ بأي حَتْفٍ فَبِالْمَقْدُوْرِ مُفْتَقَدُ**): (**وَمَنْ جَاءَتْ مَنِيَّتُهُ بأي حَتْفٍ**): بأي طريقة وبأي صفة كان موته فإن موته بالمقدور؛ يعني: سواءً مات بمرض، أو مات بأن قُتل، أو مات بحرق، أو بغرق، أو بأي صفة أو أي حال كانت عليها موته فبالمقدور، خلافًا لطائفة من أهل الضلال يقولون: من مات مقتولًا فإن القاتل قطع عليه أجله -يعني: قضى عليه قبل الأجل الذي كتبه الله له-؛ وهذا افتراء عظيم على الله، وقولٌ باطل بلا علم، فإن كل من مات بأي صفةٍ كان موتُه؛ قد مات بأجله ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٣٤]، وهذا قدَّر الله عليه أن يموت مريضًا، وهذا قدَّر الله عليه أن يموت مقتولًا، وهذا قدَّر الله عليه أن يموت غريقًا.. كلُ ذلكم بأجل وبقدر. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٣٨]. قال: (**فَبِالْمَقْدُوْرِ مُفْتَقَدُ**)؛ أي: بالقدر الذي قدره الله عليه يفتقده أهله.

قال: (**مَا إِنْ لَهُ عَنْهُ مِنْ مُسْتَأْخِرٍ أَبَدًا ... كَلاَّ وَلاَ عَنْهُ مِنْ مُسْتَقْدِمٍ يَجِدُ**): يعني: ليس هناك تقدم ولا تأخر إذا جاء الأجل. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ فكلٌّ يموت في الأجل الذي كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له.

وعندما يكون في بطن أمه يُقدَّر عليه رزقُه، وعملُه، وأجله، وشقيٌّ هو أو سعيد؛ فيُكتب متى يموت؟ وهذا التقدير الذي يكون على الإنسان وهو في رحم أمه هو تقدير داخلٌ في التقدير العام الذي كُتب في اللوح المحفوظ؛ ولهذا قال ابن القيم: "تقدير من بعد تقدير"؛ يعني: تقدير داخلٌ في التقدير العام الذي كُتب على العبد في اللوح المحفوظ، وذاك يُسمى التقدير العام، وهذا يسمى التقدير العمري -يعني: المتعلق بعمر كل إنسان بخاصته-.

(**كُلٌّ إِلى أَجَلٍ يَجْرِي عَلَى قَدَرٍ**): "**كُلٌّ**" أي: من الناس.

(**إِلى أَجَلٍ**): أي: إلى وقتٍ محددٍ معينٍ تكون نهايته فيه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

(**كُلٌّ إِلى أَجَلٍ يَجْرِي عَلَى قَدَرٍ**): يعني: كلٌّ يجري إلى أجله على قدر؛ أي: على قدر قدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

وأحيانًا بعض الناس يتحرك من بلده ومن بيته ويودع أهله مسافرًا، ويكون هذا السفر الذي تحرك من بيته هو سفرٌ لأن يموت -وكثيرًا ما يحصل هذا- يخرج من بيته ويودع أهله ليسافر سفر الموت، منيته ووفاته بأرضٍ معينة ينطلق إليها بسيارته، وربما يُسرع أيضًا في سيارته؛ لأن منيته في ذاك المكان، في تلك الأرض، وكثيرًا ما يحصل، وكثيرًا ما تُفتقد أرواح وتُزهق نفوس تذهب إلى أجلها، يجري لأجله، ينطلق إلى حيث قدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تُقبض رُوحه.

(مَا لِامْرِئٍ عَنْ قَضَاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ): أي: لا مفر للإنسان عن قضاء الله؛ فالمكتوب واقع لا محالة لا مفر منه، وتأمَّل هذا المعنى في الآية: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:٨]؛ فلا مفر من قضاء الله وما كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد، فما قدَّره كائن لا محالة.

قال: **(وَفِتْنَةُ الْقَبْرِ حَقٌّ وَالْعَذَابُ بِهِ ... لِكَافِرٍ وَنَعِيْمٌ لِلأُلَى سَعِدُوا)**: ذكر هنا ثلاثة أمور تتعلق بالقبر وهي الفتنة، والعذاب، والنعيم؛ الفتنة حيث يأتي ملكان إلى الميت في قبره، ويُقعدانه، ويقولان: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ويقال لهما: الفتَّانان.

ففتنة القبر حقٌّ، وعلى إثر هذه الفتنة يكون حال الإنسان في قبره؛ إما في نعيم، أو في عذاب.

فعذاب القبر حقٌّ، ونعيم القبر حق، وأصحاب القبور بين حالتين: إما في روضةٍ من رياض الجنة -نسأل الله الكريم من فضله-، أو في حفرةٍ من حفر النيران -أعاذنا الله جميعًا-.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِلْقِيَامَـــةِ آيـــاتٌ إِذَا وَجَبَـــتْ ** فَلَـيْسَ مِـنْ تَوْبَـةٍ تُجْـدِي وَتَلْتَحِـدُ
مِـنْ ذَاكَ أَنْ تَسْـتَبِينَ الشَّـمْسُ طَالِعَـةً ** مِنْ حَيْثُ مَغْرِبُهَا والخلْقُ قَدْ شَـهِدُوا
كَـــذَاكَ دَابَّـــةُ أَرْضٍ أَنْ تُكَلِّمَهُـــمْ ** جَهْـرًا وَتَفْـرُقَ بِـالتَّمْيِيزِ مَـنْ تَجِـدُ
نُـــزُوْلُ عِيْسَـــى لِـــدَجَّالٍ فَيَقْتُلَـــهُ ** وَفَـتْحُ سَـدِّ عِبَـادٍ مَـا لَهُـمْ عَـدَدُ
كَـذَا الـدُّخَانُ وَرِيْـحٌ وَهْـيَ مُرْسَـلَةٌ ** لَقَـبْضِ أَنْفُـسِ مَـنْ للـدَّيْنِ يَعْتَقِـدُ
وَغَيْرُهَا مِـنْ أُمُـوْرٍ فِي الْكِتَـابِ جَرَتْ ** ذِكْـرَى وَصَـحَّ بِهَـا فِي السُّـنَّةِ السَّـنَدُ

الشرح:

ذكر الناظم هنا -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- أشراط الساعة، وهي العلامات التي تأتي بين يدي الساعة مؤذنةً بدنو مجيئها وقربها؛ وهي على قسمين: آيات صغرى وآيات كبرى.

والآيات الكبرى هي التي تقع عند دنوها، وإذا وقعت الآيات الكبرى توالت كالعِقد إذا انفرط، وعلى إثرها يخرب هذا الكون وتقوم القيامة.

بدأ الكلام على آيات الساعة بقوله:

(وَلِلْقِيَامَةِ آياتٌ إِذَا وَجَبَتْ... فَلَيْسَ مِنْ تَوْبَةٍ تُجْدِي وَتَلْتَحِدُ): يعني: إذا وُجدت هذه الآيات ووقعت فلا تنفع التوبة، إذا رأى الإنسان الآية -والمراد بالآية هنا الآيات العِظام ليس الآيات الصغرى، وإنما المراد الآيات العظام الآيات الكبرى- فإذا وقعت أي ظهر شيء من هذه الآيات الكبرى العظيمة وعاينها الإنسان وأعلن توبته؛ لا تفيده التوبة.

قال أهل العلم: لأن هذا الإيمان إيمان مشاهدة، والذي ينفع هو إيمان الغيب، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣]، أما إيمان المشاهدة الذي يرى بدايات خراب الكون، ويرى الأمور العظام المهيلة؛ فيؤمن على أثر ذلك، لا ينفعه إيمانه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥٨].

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طلعت فرَآهَا النَّاسُ، آمَنُوا أجمعون، فَذلك حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**».

وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ**».

فالشاهد: أن الآيات الكبرى -الآيات العِظام- من شأنها أنها إذا وُجد شيء منها؛ فإن الإيمان حينئذٍ لا ينفع.

ومن أجمع الأحاديث لآيات الساعة العظام حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "اطلع علينا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتذاكر فقال: «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نذكر الساعة"، وهذه فائدة في حياة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ أي: أنهم يجلسون لتذاكر الساعة، يُذكِّر بعضهم بعضًا بذلك اليوم وبالتهيؤ له والاستعداد. قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات.. فذكر**

الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

ثم أخذ الناظم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- يذكر بعض علامات الساعة؛ قال:

(مِنْ ذَاكَ أَنْ تَسْتَبِينَ الشَّمْسُ طَالِعَةً... مِنْ حَيْثُ مَغْرِبُهَا والخلْقُ قَدْ شَهِدُوا): أي: أن من علامات الساعة أن تطلع الشمس من مغربها ويشاهدها الخلق طالعة، يُفاجئون يوم من الأيام وإذا بالشمس بدل أن تطلع عليهم من المشرق فإذا بها تطلع من المغرب، وهذا تحول مُهيل ومُذهل في الكون، ومؤذن بخراب هذه الدنيا ودنو زوالها؛ فإذا رأى الناس هذه الآية آمنوا أجمعين -كما مر معنا في الحديث- لكن الإيمان حينئذٍ لا ينفع ولا يفيد؛ لأنه شاهد الآية العظيمة المؤذنة بزوال العالم؛ فلا يفيده الإيمان حينئذٍ.

(كَذَاكَ دَابَّةُ أَرْضٍ أَنْ تُكَلِّمَهُمْ ... جَهْرًا وَتَفْرُقَ بِالتَّمْيِيزِ مَنْ تَجِدُ): أي: أن من آيات الله العظام آية قد جاء ذكر هذه الآية في القرآن الكريم: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [سورة النمل، من الآية:٨٢]، ومرَّ معنا الحديث لذلك عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ومن شأن هذه الدابة إذا خرجت أن يحصل منها أمران أشار إليهما الناظم:

الأول: أنها تكلم الناس جهرًا -أي: كلامًا يسمعونه-؛ وهذه آية من آيات الله العجيبة؛ أن دابة تخرج على الناس تكلمهم.

والأمر الثاني: ما أشار إليه الناظم بقوله: **(وَتَفْرُقَ بِالتَّمْيِيزِ مَنْ تَجِدُ)**، أي: أنها تسم من تجده، تضع على من تجد وسمًا، فكل من تجده تسمعه؛ تضع عليه سمة وعلامة.

(نُزُوْلُ عِيْسَى لِدَجَّالٍ فَيَقْتُلَهُ ... وَفَتْحُ سَدِّ عِبَادٍ مَا لَهُمْ عَدَدُ): هذا البيت ذكر فيه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- ثلاث أمارات للساعة؛ وهي خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، وهم أمتان عظيمتان من نسل آدم ومن ذريته؛ يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخروجهم.

(وَفَتْحُ سَدِّ عِبَادٍ مَا لَهُمْ عَدَدُ): أي: ليس لهم عدد، إشارة إلى كثرتهم، **(مَا لَهُمْ عَدَدُ)**: أي: عدد يُحصيه الناس، وإلا لهم عدد يعلمه الله، لكن يُشير بذلك إلى كثرتهم الكاثرة.

وقد جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخرج الدجال في أمتي؛ فيمكث أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا، فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة**

بن مسعود، فيطلبه فيهلكه -أي: يقتله- ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يُرسل الله ريحًا باردةً من قِبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل -أي: جوف جبل- لدخلت عليه حتى تقبضه».

ثم قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: (كَذَا الدُّخَانُ): وهو أيضًا من الآيات العظام، ومرَّ معنا بعض أدلته، وجاء أيضًا في القرآن: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ [سورة الدخان، من الآية: ١٠].

(كَذَا الدُّخَانُ وَرِيْحٌ وَهْيَ مُرْسَلَةٌ ... لَقَبْضِ أَنْفُسِ مَنْ للدَّيْنِ يَعْتَقِدُ): (وَرِيْحٌ وَهْيَ مُرْسَلَةٌ)؛ أي: يرسلها الله. (لَقَبْضِ أَنْفُسِ مَنْ للدَّيْنِ يَعْتَقِدُ)؛ أي: لتقبض روح أهل الإيمان، ومرَّ معنا الحديث بذلك، وأنها تقبض روح كل مؤمن ولو دخل الإنسان في جوف جبل؛ لدخلت عليه تلك الريح لقبض روحه.

قال: (وَغَيْرُهَا مِنْ أُمُوْرٍ فِي الْكِتَابِ جَرَتْ ... ذِكْرَى وَصَحَّ بِهَا فِي السُّنَّةِ السَّنَدُ): يشير هنا إلى أنه لم يتقص الآيات؛ بل هذه بعضها، وقد ذُكرت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وصحَّ بها السند في السنة -سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والواجب على كل مسلم أن يؤمن بما ورد في كتاب الله، وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذكر لأشراط الساعة، وغير ذلك من أصول الإيمان وحقائقه العظام.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَغَيْرُهَا مِنْ أُمُوْرٍ فِي الْكِتَابِ جَرَتْ ** ذِكْرَى وَصَحَّ بِهَا فِي السُّنَّةِ السَّنَدُ
والنفخُ في الصُّوْرِ حَقٌّ أَوَّلًا فَزَعٌ ** فَصَعْقَةٌ فَقِيَامٌ بَعْدَ مَا رَقَدُوا
وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ وَالأَعْمَالُ مُحْضَرَةٌ ** فِي الصُّحْفِ تُنْشَرُ وَالأَشْهَادُ قَدْ شَهِدُوا
وَالْجِسْرُ مَا بَيْنَ ظَهْرَانِي الْجَحِيْمِ كَمَا ** فِي النَّصِّ إِنْ أَحَدٌ إِلاَّ لَهَا يَرِدُ
يَجُوْزُهُ النَّاسُ بِالأَعْمَالِ تَحْمِلُهُمْ ** عَلَيْهِ لَيْسَ الْقُوى وَالْعَدُّ وَالْعُدَدُ
كَالْبَرْقِ والطَّرْفِ أَوْمَرِّ الرِّيَاحَ وَكَالْـ ** جِيَادِ أَوْ كَرِكَابِ النُّوْقِ تَنْشَرِدُ
وَذَاكَ يَعْدُو وَذَا يَمْشِي عَلَيْهِ وَذَا ** زَحْفًا وَذَا كُبَّ فِي نَارٍ بِهِ تَقِدُ
وَالنَّارُ حَقٌّ وَجَنَّاتُ النَّعِيْمِ وَلاَ ** نَقُوْلُ تَفْنَى وَلاَ ذَا الآنَ تُفْتَقَدُ
هَذي لأَعْدائِهِ قَدْ أُرْصِدَتْ أَبَدًا ** وَذِي لأَحْبابِهِ وَالْكُلُّ قَدْ خَلَدُوا
وَحَوْضُ أَحْمَدَ قَدْ أَعْطَاهُ خَالِقُهُ ** غَوْثًا لأُمَّتِهِ فِي الْحَشْرِ إِذْ تَرِدُ

وَالرُّسْلُ تَحْتَ لَوَاءِ الْحَمْدِ تُحْشَرُ إِذْ ** ذَاكَ اللِّوَا لِخِتَامِ الرُّسْلِ يَنْعَقِدُ

الشرح:

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: (**والنفخُ في الصُّوْرِ حَقٌّ**): النفخ في الصور؛ أي: نفخ ملك الصور، (**في الصُّوْرِ**)؛ والصور هو قرن قد سُئل عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الصور: ما هو؟ قال: «**هو قرنٌ يُنفخ فيه**»، فالنفخ في الصور حق؛ لثبوت ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (**أَوَّلًا فَزَعٌ فَصَعْقَةٌ فَقِيَامٌ**): والشيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- يختار أنها ثلاث نفخات، وسبق أن أشرت إلى أن من أهل العلم من يختار أنها نفختان: الصعق والقيام، ويجعل الفزع متعلقًا بذلك وليس نفخةً مستقلة، ومنهم من يختار أنها ثلاث ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-.

قال: (**أَوَّلًا فَزَعٌ فَصَعْقَةٌ فَقِيَامٌ بَعْدَ مَا رَقَدُوا**): قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٨]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٨٧].

فهذه ثلاث نفخات: الفزع، والصعق، والقيام لرب العالمين.

قال: (**وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ وَالأَعْمَالُ مُحْضَرَةٌ ... فِي الصُّحْفِ تُنْشَرُ وَالأَشْهَادُ قَدْ شَهِدُوا**): هذه أيضًا من الأمور الثابتة مما يقع يوم القيامة.

(**وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ**): كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٤٧]، والوزن حق، ويوم القيامة تُنصب الموازيين، وهو ميزان حقيقي له كِفَّتان؛ كفة فيه توضع الحسنات، وكفة توضع السيئات، ويوزن أو يوضع على الميزان العامل والأعمال والصحف؛ كل ذلكم يوزن كما دلت على ذلك الدلائل.

(**وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ**): أي: بالعدل.

(**وَالأَعْمَالُ مُحْضَرَةٌ**): أي: عمل كل عامل يُحضر يوم القيامة؛ ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٤٩].

(**فِي الصُّحْفِ**): أي: كلٌ يحضر عمله في صحيفته، في كتاب يجمع كل عمل الإنسان. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٤٩].

(**فِي الصُّحْفِ تُنْشَرُ**): أي: تُنشر الدواوين -دواوين الأعمال- وكلٌّ يطلع على أعماله وديوان عمله.

(**وَالأَشْهَادُ قَدْ شَهِدُوا**): أي: شهدوا على الإنسان بعمله، ومن ذلكم أن جوارح الإنسان تشهد عليه بما قدَّم وبما عمل، ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [سورة يس، من الآية:٦٥]، ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة فصلت، من الآية:٢١].

قال: (**وَالْجِسْرُ مَا بَيْنَ ظَهْرَانِي الْجَحِيْمِ كَمَا ... فِي النَّصِّ إِنْ أَحَدٌ إِلاَّ لَهَا يَرِدُ**): كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية:٧١-٧٢]، وقد فسَّر جماعة من أهل العلم الورود بالمرور على الصراط الذي يُنصب على متن جهنم، وهو صراطٌ حقيقي أحدُّ من السيف وأدق من الشعرة، يُنصب على متن جهنم ويُطلب من الخلائق العبور، ومن تحتهم نار جهنم تلظَّى، ثم يمر الناس على هذا الجسر المنصوب على متن جهنم بحسب أحوالهم في الإيمان والدين والعبادة، فمرورهم على الصراط الذي يُنصب على متن جهنم يوم القيامة، بحسب سيرهم على الصراط المستقيم في الحياة الدنيا؛ ولهذا يتفاوت الناس في المرور تفاوتًا عظيمًا كما سيأتي بيان ذلك عند الناظم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-.

قال: (**يَجُوْزُهُ النَّاسُ**): أي يمرون عليه، (**يَجُوْزُهُ النَّاسُ بِالأَعْمَالِ تَحْمِلُهُمْ ... عَلَيْهِ لَيْسَ الْقُوى وَالْعَدُّ وَالْعُدَدُ**): ليس الذي يحمل الإنسان على الجسر قوة جسمه ليس هذا الذي يحمله ولا العدد يجتمع مجموعة يتعاونون أونحو ذلك ليس الذي يحمل الإنسان على الجسر شيئًا من ذلك، ما الذي يحمله؟ الأعمال، الذي يحمل الإنسان على الجسر الأعمالُ الصالحة، هي التي تحمله فقط؛ ولهذا سُرعة السير على الجسر بحسب الأعمال؛ كلما قويت الأعمال وكثرت خالصةً لله صالحةً وفق شرع الله كلما كان ذاك أسرع في سيره ومروره؛ ولهذا قال: (**كَالْبَرْقِ والطَّرْفِ أَوْ مَرِّ الرِّيَاحَ وَكَالْجِيَادِ**)؛ الخيل. (**أَوْ كَرِكَابِ النُّوْقِ تَنْشَرِدُ**)؛ تعدو وتسرع، فمتفاوتون في سيرهم على الصراط.

منهم من يمر (**كَالْبَرْقِ**)؛ نسأل الله الكريم من فضله. (**وَذَاكَ يَعْدُو وَذَا يَمْشِي عَلَيْهِ وَذَا زَحْفًا**): أنظر التفاوت؛ يعني: منهم كالبرق، منهم كالريح، منهم كطرف العين، منهم كأجاويد الخيل، ومنهم كركاب الإبل، ومنهم جريًا، ومنهم مشيًا، ومنهم زحفًا -يمشي على الصراط زحفًا-.

(**وَذَا كُبَّ فِي نَارٍ بِهِ تَقِدُ**): أي: تتقد به، يعني: يسقط من على الصراط، وجاء في الحديث: أن الأنبياء على جنبتي الصراط يقولون: «**اللهم سلِّم سلِّم**»، وهذه شفاعة منهم لأممهم.

قال: (**وَالنَّارُ حَقٌّ وَجَنَّاتُ النَّعِيْمِ**): أي حق النار حق بكل أنواع العذاب الذي أودعه الله فيها، والجنة حق بكل أنواع النعيم الذي أودعه الله فيها. أجارنا الله جميعًا من النار، وأكرمنا بدخول جنته في عباده الأبرار.

قال: (**وَالنَّارُ حَقٌّ وَجَنَّاتُ النَّعِيْمِ وَلاَ نَقُوْلُ تَفْنَى**): لا نقول: النار تفنى، ولا نقول: الجنة تفنى؛ بل الجنة باقية أبد الآباد، والنار باقية أبد الآباد، وأهل الجنة خالدين فيها أبد الآباد، والنار كذلك. لا نقول: تفنى.

(**وَلاَ ذَا الآنَ تُفْتَقَدُ**): ولا نقول: الآن النار مفقودة، ليست موجودة، بل نعتقد أن النار والجنة الآن موجودتان، لا نقول: إن الجنة والنار الآن تفتقد، مفقودة لم توجد بعد، وأنها تُخلق يوم القيامة -لا نقول ذلك- ، بل نقول: إن الجنة والنار الآن موجودتان.

وقد دلَّت دلائل كثيرة جدًا في الكتاب والسُّنة على أن النار مخلوقتان موجودتان، ومن ذلكم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٣٣]، والمُعَدُّ موجود، وجاء في صلاة الكسوف أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلي بهم تقدَّم إلى الأمام ومد يده وقت الصلاة، ثم تأخر إلى الوراء فسألوه فقال: «**رأيت الجنة والنار**»، وكان تقدُّمه ليأخذ عنقودًا من عناقيد الجنة، يرى الجنة ويرى عناقيد من العنب أمام ناظريه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والصحابة خلفه في الصفوف لا يرون شيئًا -وربنا على كل شيءٍ قدير-. وتقدَّم ومد يده ليُمسك عنقوًا، يرى الجنة أمامه رأي العين.

قال: «**ولو أخذت عنقودًا لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»؛ يعني يبقى سليمًا ليأكل منه الناس إلى أن تبقى في الدنيا.

ورأى النار، ورأى بعض من في النار؛ ومما رأى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في النار -وهو يصلي بالناس صلاة الكسوف- رأى امرأة دخلت النار في هرة، ورآها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في النار.

ورأى عمرو بن لُحي الذي جلب الأصنام، وأعاد عبادة الأوثان.

فإذًا نعتقد أن النار حق والجنة حق، ولا نقول: النار تفنى، ولا نقول: الجنة تفنى، بل هما باقيتان، وأيضًا ولا نقول: إن الجنة أو النار تُفتقد الآن، ليست موجودة، بل نعتقد أن الجنة والنار موجودتان الآن، خلق الله الجنة وهيئها لعباده المتقين، وخلق النار وأعدها للظالمين.

كما يُبين ذلك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- في قوله: (**هَذي لأَعْدائِهِ قَدْ أُرْصِدَتْ أَبَدًا**): (**هَذي**)؛ أي: النار. (**لأَعْدائِهِ قَدْ أُرْصِدَتْ**)؛ أي: أُعدت. (**أَبَدًا**).

(**وَذِي**): أي: الجنة.

(**لأَحْبابِهِ وَالْكُلُّ قَدْ خَلَدُوا**): أي: أهل الجنة وأهل النار كلهم يخلدون؛ هؤلاء يخلدون في الجنة أبد الآباد، هؤلاء يخلدون في النار أبد الآباد.

وقد جاء في الحديث الصحيح: أنه يؤتى -حين يبقى في النار أهلها الذين هم أهلها ويُخرج عُصاة الموحدين- يؤتى بكبشٍ ويوضع بين الجنة والنار؛ فينادى أهل الجنة فيستبشرون، ويُقال: تعرفون ذلك؟ يقولون: نعم نعرفه؛ هذا الموت، ويُنادى أهل النار ويقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم نعرفه، ثم يُذبح بين الجنة والنار، الموت يذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

قال: (**وَحَوْضُ أَحْمَدَ قَدْ أَعْطَاهُ خَالِقُهُ ... غَوْثًا لأُمَّتِهِ فِي الْحَشْرِ إِذْ تَرِدُ**): في الحشر يرد الناس -أي: يجيئون عطاشًا- أحوج ما يكون وأشد ما يكونون إلى الماء؛ فهو يوم العطش، والناس أحوج ما يكونون في ذلك اليوم إلى الماء؛ فأكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبينا بالحوض المورود، وجاء وصفه في السُّنة بأن طوله شهر، وعرضه شهر، وعدد كيزانه عدد نجوم السماء، وأن ماءه أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأطيب من ريح المسك، من شرب منه شربةً لا يظمأ بعدها أبدًا.

فنؤمن بالحوض المورود، (**وَحَوْضُ أَحْمَدَ قَدْ أَعْطَاهُ خَالِقُهُ ... غَوْثًا لأُمَّتِهِ فِي الْحَشْرِ**). يعني: في ذلك اليوم العصيب وفي العطش الشديد.

وجاء في الحديث: أن أقوامًا يُذادون عن الحوض، فيقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أصحابي أصحابي**»؛ فيُقال: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، وهذا فيه دلالة على خطورة الإحداث في دين الله، وأنه من أسباب الذود عن الحوض، والحرمان من الشرب منه. ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُكرمنا أجمعين بالورود عليه وأن نشرب منه شربًا هنيئةً لا نظمأ بعدها أبدًا.

قال: (**وَالرُّسْلُ تَحْتَ لَوَاءِ الْحَمْدِ تُحْشَرُ ... إِذْ ذَاكَ اللِّوَا لِخِتَامِ الرُّسْلِ يَنْعَقِدُ**): هنا يذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- لواء الحمد، وهو لواءٌ يكون بيد محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وبيدي لواء الحمد**».

يقول الناظم: (**وَالرُّسْلُ تَحْتَ لَوَاءِ الْحَمْدِ تُحْشَرُ ... إِذْ ذَاكَ اللِّوَا لِخِتَامِ الرُّسْلِ يَنْعَقِدُ**): أي: يكون منعقدًا لختام الرسل الذي هو محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيكون بيده لا بيد غيره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ وهذا من خصائصه، وله خصائص كثيرة في الآخرة -صلوات الله وسلامه عليه-؛ فمن خصائصه أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل بيده لواء الحمد لا بيد غيره، ومرَّ معنا من خصائصه الشفاعة العظمى، وأيضًا من خصائصه الشفاعة لأهل الجنة في دخول الجنة،

فله خصائص، أمور خصه الله بها يوم القيامة، ومن خصائصه أن أعلى درجة ومنزلة في الجنة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اللهم اجمعنا به في جنات النعيم.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: (**كَذَا المَقَامُ لَهُ الْمَحْمُودُ حَيْثُ بِهِ ... فِي شَأْنِهِ كُلُّ أَهْلِ الْجَمْعِ قَدْ حَمِدُوا**): هنا أيضًا يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ شيئًا مما خصَّ الله به نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو المقام المحمود، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٧٩]، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي يغبطه عليها الأولون والآخرون -صلوات الله وسلامه عليه-؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ مفسرًا المقام المحمود:

(**وَهْوَ الشَّفَاعَةُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ وفِي ... فَتْحِ الْجِنَانِ لأَهْلِيْهَا إِذَا وَفَدُوا**): المقام المحمود هو الشفاعة العُظمى، واستفتاح الجنة هو مقامٌ يُحمد عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن المقام المحمود المعني بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، هو الشفاعة العُظمى للخلائق في أن يبدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالفصل بين العباد. قال: (**وَهْوَ الشَّفَاعَةُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ**).

وقد مرَّ معنا أن الناس يأتون إلى الأنبياء فيعتذرون، وكلٌّ منهم يُحيل إلى الآخر حتى يحيلهم عيسى إلى نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيقول: «**أنا لها**»، ويخر ساجدًا تحت العرش، ويحمد الله بمحامد ويُثني عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه وصفاته مما يعلمه الله إياه في ذلك الوقت، ثم يقول الله له: «**ارفع رأسك، وسل تُعطى، واشفع تُشفع**»، وحينئذٍ يجيء الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنفسه للفصل بين العباد. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [سورة الفجر، من الآية:٢٢].

(**وفِي فَتْحِ الْجِنَانِ**): قد جاء في الحديث الصحيح أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**أستفتح باب الجنة فيقول لي الخازن: لك أُمرت أن أفتح، وألا أفتح لأحدٍ قبلك**»؛ فهو أول من يستفتح باب الجنة، وأول من يُفتح له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ باب الجنة.

(**وفِي فَتْحِ الْجِنَانِ لأَهْلِيْهَا إِذَا وَفَدُوا**): أي إذا وفدوا إلى الجنة للدخول والفوز بثواب الله العظيم.

قال: (**وَفِي عُصَاةِ أُولِي التَّوْحِيْدِ**): أي: الشفاعة في عصاة أولي التوحيد.

(**يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْجَحِيْمِ وَيُدْرِيْهِمْ بِمَا سَجَدُوا**): أدراه بالشيء أي: أعلمه به، (**وَفِي عُصَاةِ أُولِي التَّوْحِيْدِ يُخْرِجُهُمْ ... مِنَ الْجَحِيْمِ وَيُدْرِيْهِمْ بِمَا سَجَدُوا**)؛ هذه الشفاعة لعصاة الموحدين، وهي ليست خاصة به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ بل هو يشفع، والملائكة تشفع، والأنبياء يشفعون، والصالحون من عباد الله يشفعون، والشهداء يشفعون، قد جاء في الحديث: "أن الشهيد يشفع لسبعين من أهله"، فالشفاعة حق وثابتة.

(**وَبَعْدَهُ يَشْفَعُ الأَمْلاَكُ وَالشُّهَدَا ... وَالأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعٌ لَهُمْ سَعِدُوا**): كل هؤلاء يشفعون. (**الأَمْلاَكُ**)؛ الملائكة تشفع، والشهداء يشفعون، والأنبياء يشفعون، وأتباعٌ للأنبياء أيضًا يشفعون.

فَيُخْرِجُوْنَهُمو فَحْمًا قَدِ امْتَحَشُوا ** مِنَ الجَحِيْمِ قَدِ اسّودُّوا وَقَدْ خَمَدُوا

فَيُطْرَحُوْنَ بِنَهْرٍ يَنْبُتُونَ بِهِ ** نَبْتَ الْحُبُوبِ بِسَيْلٍ جَاءَ يَطَّرِدُ

يذكر -رحمة الله عليه- في هذين البيتين صفة خروج عصاة الموحدين من النار بعد شفاعة الأملاك والشهداء والأنبياء والصالحين من عباد الله؛ ما هي الصفة التي يخرج عليها عصاة الموحدين من النار، ذكر ذلك في هذين البيتين قال:

(**فَيُخْرِجُوْنَهُمو فَحْمًا**): يعني: قطع من الفحم، قطع متفحمة. فحماً.

(**قَدِ امْتَحَشُوا**): أي: من النار، صلتهم النار.

(**قَدِ امْتَحَشُوا مِنَ الجَحِيْمِ قَدِ اسّودُّوا وَقَدْ خَمَدُوا**): أي: يخرجون قطع خامدة ميتة متفحمة. بهذه الصفة قطع من الفحم.

(**فَيُطْرَحُوْنَ**): أي: هذه القطع من الفحم.

(**بِنَهْرٍ**): نهر الفردوس في الجنة.

(**يَنْبُتُونَ بِهِ**): ينبتون بهذا النهر.

(**نَبْتَ الْحُبُوبِ بِسَيْلٍ جَاءَ يَطَّرِدُ**): يعني: مثل الحبوب التي تنبت يحملها السيل، الآن الأودية قبل مجيء السيل تكون فيها بذور -حبوب- مترامية في الأودية؛ إذا جاء السيل يحمل الحبوب التي في الأرض على متنه وهو يمشي ويقذف بها على جنبتي الوادي، وتنبت هذه الحبوب بمائه -تحيا بماء السيل-؛ فهؤلاء يُلقَوْن في نهر -هذه القطع المتفحمة- تُلقى في نهر الفردوس، وتحيا بمائه؛ فينبتون كما جاء في الحديث: «**كما تنبت الحِبَّةُ في حميل السيل**»، والحِبَّة -بكسر الحاء- وهي التي تكون في الصحراء وفي الأودية، أما الحبوب التي يزرعها الناس فواحدتها "حَبَّة"؛ مثل: القمح والشعير والحنطة والذرة وغير ذلك. أما الحبوب التي في الصحراء فواحدتها "حِبَّة".

وهذا المعنى صاغه ابنُ أبي داود -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- في [**حائيته**] المشهورة في بيتين، من يحفظهما؟

فهذا المعنى الذي ذكره ابن أبي داود وذكره الحافظ هنا ثبت به الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلكم ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النار بذنوبهم**، من هم؟ عصاة الموحدين -أو قال: بخطاياهم- **فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا، أُذِن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر**»؛ يعني: جماعات جماعات، ودفعات دفعات، لماذا لا يخرجون دفعة واحدة؟ لماذا لم يخرج هؤلاء العصاة دفعة واحدة؟ لأن كبائرهم متفاوتة بين مُقلٍّ ومستكثر، ودخولهم النار للتمحيص والتطهير؛ فمنهم التطهير يحتاج إلى وقت، ومنهم التطهير إلى دون ذلك، ولهذا يخرجون ضبائر ضبائر؛ أي: جماعات جماعات.

قال: «**فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثوا على أنهار الجنة** -أي: يُطرحون على أنهار الجنة- **ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا علينا**»، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حميل السيل**»، وهذه المعلومة -الحِبة في حميل السيل- هذه المعلومة لا يعرفها إلا أهل البوادي، أما الذي ليس من أهل البادية عندما يرى النبات على جنبتي الوادي وتسأله عن هذا النبات: من أين بذور هذا النبات؟ لا يدري، لكن أهل البادية يعرفون أن الوادي ممتلئ بالبذور، وأنه إذا جاء السيل يطفح حمل البذور وألقاها على جنبتيه، ولهذا تنبت هذه البذور على جنبتي الوادي. قال: «**فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حميل السيل، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان بالبادية**»؛ لأن هذه المعلومة ليست معروفة إلا عند أهل البوادي.

المتن:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كَـذَا المَقَـامُ لَـهُ الْمَحْمُـودُ حَيْـثُ بِـهِ ** فِي شَأْنِهِ كُلُّ أَهْلِ الْجَمْعِ قَدْ حَمِدُوا
وَهْـوَ الشَّـفَاعَةُ فِي فَصْـلِ الْقَضَـاءِ وفِي ** فَـتْحِ الْجِنَـانِ لأَهْلِيْهَـا إِذَا وَفَـدُوا
وَفِي عُصَاةِ أُولِي التَّوْحِيْدِ يُخْرِجُهُمْ ** مِنَ الْجَحِيْمِ وَيُدْرِيْهِمْ بِمَا سَجَدُوا
وَبَعْـدَهُ يَشْـفَعُ الأَمْـلاَكُ وَالشُّـهَدَا ** وَالأَنْبِيَـاءُ وَأَتْبَـاعٌ لَهُـمْ سَـعِدُوا
فَيُخْرِجُوْنَهُمـو فَحْمًـا قَـدِ امْتَحَشُـوا ** مِنَ الجَحِيْمِ قَدِ اسْوَدُّوا وَقَدْ خَمَدُوا
فَيُطْرَحُـوْنَ بِنَهْـرٍ يَنْبُتُـونَ بِـهِ ** نَبْـتَ الْحُبُـوبِ بِسَـيْلٍ جَـاءَ يَطَّـرِدُ
ثُـمَّ الشَّـفَاعَةُ مُلْـكٌ للإِلَـهِ وَلاَ ** شَـرِيْكَ جَـلَّ لَـهُ فِي مُلْكِـهِ أَحَـدُ
فَلَـيْسَ يَشْـفَعُ إِلاَّ مَـنْ يَشَـاءُ وَفِي ** مَنْ شَاءَ حِيْنَ يَشَاءُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ

وَيُخْــــرِجُ اللهُ أَقْوَامًــــا بِرَحْمَتِــــهِ ** بِــلاَ شَــفَاعَةَ لاَ يُحْصَــى لَهُــمْ عَــدَدُ
وَلَـيْسَ يَخْلُـدُ فِي نَـارِ الجَحِيْمِ سِوَى ** مَـنْ كَـانَ بـالكُفْرِ عَـنْ مَـوْلاَهُ يَبْتَعِـدُ
يَا عُظْـمَ مَـا رَكِبـوا يـا سُـوْءَ مـا نَكَبُـوا ** عَـنْ رَبِّهِـمْ حُجِبُـوا مِـنْ فَضْـلِهِ بُعِـدُوا

الشرح:

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: (ثُمَّ الشَّفَاعَةُ مُلْكٌ للإِلَهِ): كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر، من الآية:٤٤]؛ فالشفاعة ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(ثُمَّ الشَّفَاعَةُ مُلْكٌ للإِلَهِ وَلاَ ... شَرِيْكَ جَلَّ لَهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدُ): لا شريك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ملكه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٢-٢٣]، فالشفاعة ملك لله وليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شريكٌ في ملكه.

(فَلَيْسَ يَشْفَعُ إِلاَّ مَنْ يَشَاءُ وَفِي ... مَنْ شَاءَ حِيْنَ يَشَاءُ): هذه ضوابط للشفاعة؛ فالشفاعة لا تكون إلَّا لمن أَذِنَ الله له أن يشفع؛ ليس كل أحد يشفع، وإنما الذي يشفع من أَذِنَ الله له بالشفاعة. قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٣]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٦]؛ فهذا ضابط للشفاعة وهو إذن الله للشافع.

قال: (فَلَيْسَ يَشْفَعُ إِلاَّ مَنْ يَشَاءُ): **أي من يأذن الله له بالشفاعة.**

(وَفِي مَنْ شَاءَ): والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يأذن بالشفاعة إلا لمن رضيَ قوله وعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٨]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [سورة النجم، من الآية:٢٦]؛ إذنه للشافع، ورضاه تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن المشفوع له، وهو جَلَّ وَعَلَا لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، أمَّا من سواهم فإن الشفاعة لا تنفعهم.

قال: (وَفِي مَنْ شَاءَ حِيْنَ يَشَاءُ): أي: أن الشفاعة لا تكون إلا في الوقت الذي يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه للشفعاء بأن يشفعوا. (حِيْنَ يَشَاءُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ).

(**وَيُخْرِجُ اللهُ أَقْوَامًا بِرَحْمَتِهِ ... بِلاَ شَفَاعَةَ لاَ يُحْصَى لَهُمْ عَدَدُ**): وهذا جاء في صحيح البخاري بعد أن يشفع الشفعاء يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**بقيت رحمتي**»، ثم يُخرج سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ برحمته -كما قال الناظم- عددًا لا يحصيه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخرجهم برحمته.

قال: (**وَلَيْسَ يَخْلُدُ فِي نَارِ الجَحِيْمِ سِوَى ... مَنْ كَانَ بالكُفْرِ عَنْ مَوْلاَهُ يَبْتَعِدُ**): أي: أن النار لا يُخلَّد فيها إلا الكفار، أما العصاة -عصاة أهل التوحيد- ومن في قلبه إيمان فإنه يخرج من النار، كما في الحديث القدسي: «**أخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة من إيمان**».

والذين يخلدون في النار هم الكفار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

[سورة فاطر، من الآية:٣٧].

(**يَا عُظْمَ مَا رَكِبوا يا سُوْءَ ما نَكَبُوا ... عَنْ رَبِّهِمْ حُجِبُوا مِنْ فَضْلِهِ بُعِدُوا**): هذه حال الكافر -عياذًا بالله-؛ (**يَا عُظْمَ مَا رَكِبوا**)؛ أي: من الذنوب، وأيُّ جرمٍ أشنع وأيُّ ذنب أفظع من الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟!

(**يا سُوْءَ ما نَكَبُوا**): نكِبَ عن الحق أو عن الطريق أو عن الجادة؛ أي: حاد عنها، وهم نكبوا عن صراط الله المستقيم، وانحرفوا عن سبيله القويم.

(**عَنْ رَبِّهِمْ حُجِبُوا**): ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة المطففين، من الآية:١٥-١٦].

(**مِنْ فَضْلِهِ بُعِدُوا**): أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ طردهم من رحمته، وأبعدهم عن فضله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونعمته. نسأل الله لنا جميعًا الجنة وما قرب إليها من قولٍ أو عمل، وأن يُعيذنا من النار وما قرب إليها من قولٍ أو عمل.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابٌ: الإيمان بالنظر إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الدار الآخرة:

وَالْمُؤْمِنُـــوْنَ يَـــرَوْنَ اللهَ خَـــالِقَهُمْ ** يَـوْمَ اللِّقَـا وَعْـدُهُ الصِّـدْقُ الـذِي وُعِـدُوا
يَرَوْنَـــهُ فِي مَقَـــامِ الْحَشْـــرِ حِـــيْنَ يُنَـــا ** دِيْهِـــمْ لِيَتَّبِـــعِ الأَقْـــوَامُ مَـــا عَبَـــدُوا
فَيَتْبَـــعُ الْمُجْـــرِمُ الأَنْـــدَادَ تَقْـــدُمُهُمْ ** إِلَـــى جَهَـــنَّمَ وِرْدًا سَـــاءَ مَـــا وَرَدُوا
وَالْمُؤْمِنُـــوْنَ لِمَـــوْلاَهُمْ قَـــدِ انْتَظَـــرُوا ** إِذَا تَجَلَّـــى لَهُـــمْ سُـــبْحَانَهُ سَـــجَدُوا

إِلاَّ الْمُنَـــافِقُ يَبْقَـــى ظَهْـــرُهُ طَبَقًـــا ** إِذْ فِي الْحَيَـــاةِ إِذَا قِيْـــلَ اسْـــجُدُوا
كَـــذَا الزِّيَـــادَةُ فِي يَـــوْمِ الْمَزِيْـــدِ إِذَا ** مَرَدُوا عَلَى النَّجَائِبِ للرَّحْمَانِ قَدْ وَفَدُوا
فَالأَنبِيَـــاءُ كَـــذَا الصِّـــدِّيْقُ وَالشُّـــهَدَا ** عَلَـــى مَنَـــابِرَ نُـــوْرٍ فِي الْعُـــلا قَعَـــدُوا
وَغَيْرُهُمْ مِنْ أُولى التقْوَى مَجَالِسُهُمْ ** كُثْبَـــانُ مِسْـــكٍ أَلاَ يَـــا نِعْمَـــتِ الْمُهُـــدُ
مِـنْ فَـوْقِهِمْ أَشْـرَفَ الـرَّحْمَنُ جَـلَّ وَنَـا ** دَاهُـــمْ سَـــلاَمٌ عَلَـــيْكُمْ كُلُّهـــم شَـــهِدُوا
يَرَوْنَـــهُ جَهْـــرَةً لاَ يَمْتَـــرُوْنُ كَمَـــا ** للشَّـمسِ صَـحْوًا يَـرَى مَـنْ مَـا بِـهِ رَمَـدُ
هُنَـــاكَ يَـــذْهَلُ كُـــلُّ عَـــنْ نَعِـــيْمِهِمُ ** بِـــذَا النَّعِـــيْمِ فَيَـــا نُعْمَـــى لَهُـــمْ حُمِـــدُوا
وَذَا لَهُـــمْ أَبَـــدًا فِي كُـــلِّ جُمْعَـــتِهِمْ ** بُشْـــرَى وَطُـــوْبَى لِمَـــنْ فِي وَفْـــدِهِمْ يَفِـــدُ

الشرح:

قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: (بابٌ: **الإيمان بالنظر إلى الله** عَزَّوَجَلَّ **في الدار الآخرة**)؛ وهذا أكمل وأعظم نعيمٍ يناله أهلُ الجنة، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضرَّاء مضرة، ولا فتنة مضلة**»؛ فهذا أكمل نعيم وأفضل نعيمٍ يناله أهل الجنة؛ ألا وهو رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ينظرون إليه حقيقةً عيانًا بأبصارهم، وقد جاء في الحديث عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تُضامُّون في رؤيته**».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذه العقيدة: (**وَالْمُؤْمِنُوْنَ يَرَوْنَ اللهَ خَالِقَهُمْ يَوْمَ اللِّقَا**): أي: يوم القيامة، يوم يلقون الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١١٠]، وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾، ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾؛ هذا هو الزاد للقاء وللثواب ولرؤية الرب الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ فليست هذه النعم العظام والعطايا الجليلة بمجرد الأماني.

وفي حديث الرؤية المشهور قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروبها فافعلوا**»؛ أي: صلاة الفجر وصلاة العصر، فالأمر يحتاج إلى عمل وجِد واجتهاد وصبر ومصابرة ومرابطة. ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة النساء، من الآية:١٢٣].

قال: (**وَعْدُهُ الصِّدْقُ الذِي وُعِدُوا**): أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ وعدهم بذلك، ووعده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى صِدْق، وعدهم في مثل قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة، من الآية:٢٢-٢٣]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة ق، من الآية:٣٥]، والمزيد رؤية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ فالله وعد أهل الإيمان بذلك ووعده الصدق؛ ولهذا فإن أكبر نعيم يناله أهل الجنة في الجنة هو رؤية الله؛ ولهذا جاء في صحيح مسلم: «**أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة يُناديهم الله** جَلَّوَعَلَا: **هل تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا! ألم تنجنا من النار! ألم تدخلنا الجنة!**»؛ قال: «**فيُكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَى»، فهذا أكمل وأكبر وأعظم نعيم.

قال: (**يَرَوْنَهُ فِي مَقَامِ الْحَشْرِ حِيْنَ يُنَادِيْهِمْ لِيَتَّبِعِ الأَقْوَامُ مَا عَبَدُوا**): وذلك حين يجيء الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لفصل القضاء كما في الآية الكريمة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر، من الآية:٢٢]؛ فيرونه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في مقام الحشر حين يجيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَى للفصل بين العباد.

(**لِيَتَّبِعِ الأَقْوَامُ مَا عَبَدُوا**): أي: كل قوم يتبعون من يعبدون؛ فأصحاب الأوثان يتبعون الأوثان، والشمس الشمس، والنجوم النجومَ؛ وهكذا كل أتباع يتبعون ما عبدوا.

(**فَيَتْبَعُ الْمُجْرِمُ الأَنْدَادَ تَقْدُمُهُمْ ... إِلى جَهَنَّمَ وِرْدًا سَاءَ مَا وَرَدُوا**): أي: أن عُبَّاد الأصنام والأوثان يتبعون أصنامهم وأوثانهم فتقدم أمامهم إلى النار -نار جهنم- فيردونها أجمعين. (**سَاءَ مَا وَرَدُوا**).

(**وَالْمُؤْمِنُوْنَ لِمَوْلاَهُمْ قَدِ انْتَظَرُوا ... إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ سَجَدُوا**): اللهم اجعلنا من أهل هذه السجدة.

قال: (**وَالْمُؤْمِنُوْنَ لِمَوْلاَهُمْ قَدِ انْتَظَرُوا ... إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ سَجَدُوا**): يعني: يتبع كل أقوام معبوديهم، ويقدمون بهم النار ويبقى المؤمنون ينتظرون ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ فإذا تجلَّى لهم ربهم جَلَّوَعَلَا سجدوا.

(**إِلاَّ الْمُنَافِقُ يَبْقَى ظَهْرُهُ طَبَقًا**): يعني: يبقى ظهره مستقيمًا لا يتمكن من السجود؛ قال تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [سورة القلم، من الآية:٤٢]. يبقى ظهره طبقًا، أي: لا يتمكن ولا يستطيع أن يسجد. (**إِلاَّ الْمُنَافِقُ يَبْقَى ظَهْرُهُ طَبَقًا**).

(**إِذْ فِي الْحَيَاةِ إِذَا قِيْلَ اسْجُدُوا**): مردوا. حالهم أن في الحياة إذا قيل: اسجدوا مردوا. ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٢]، المنافق الصلاةُ ثقيلة عليه، وإذا قيل له: صلي؛ مرد؛ يعني: يتمرد ويمتنع

ويتعذر..؛ فهي ثقيلة عليه؛ ولهذا يوم القيامة يبقى ظهره طبقًا لا يستطيع أن يسجد؛ لأنه كان في الحياة إذا قيل لهم: اسجدوا؛ مردوا.

قال: (**كَذَا الزِّيَادَةُ فِي يَوْمِ الْمَزِيْدِ**): يشير إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة ق، من الآية:٣٥]؛ والمزيد رؤية الله، قال: (**كَذَا الزِّيَادَةُ فِي يَوْمِ الْمَزِيْدِ**). ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس، من الآية:٢٦]، والزيادة هي النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكريم.

(**كَذَا الزِّيَادَةُ فِي يَوْمِ الْمَزِيْدِ إِذَا ... مَرَدُوا عَلَى النَّجَائِبِ لِلرَّحْمَانِ قَدْ وَفَدُوا**): أي: على الركاب الذي أُعد لهم في الجنة يركبونه، ويذهبون لزيارة الرحمن ويفدون عليه، فينظرون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. (**كَذَا الزِّيَادَةُ فِي يَوْمِ الْمَزِيْدِ إِذَا ... مَرَدُوا عَلَى النَّجَائِبِ لِلرَّحْمَانِ قَدْ وَفَدُوا**)؛ أي: قدموا وذهبوا إلى الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**فَالأَنبِيَاءُ كَذَا الصِّدِّيْقُ وَالشُّهَدَا ... عَلَى مَنَابِرَ نُوْرٍ فِي الْعُلا قَعَدُوا**): يعني يكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه المنازل العلية، على منابر من نور في العُلا؛ أي: في أعلى منازل في الجنة.

(**وَغَيْرُهُمْ مِنْ أُولى التقْوَى مَجَالِسُهُمْ ... كُثْبَانُ مِسْكٍ أَلاَ يَا نِعْمَتِ الْمُهُدُ**): وهذا فيه تفاوت أهل الجنة في الجنة في المنازل وفي النعيم وفي النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكريم.

(**مِنْ فَوْقِهِمْ أَشْرَفَ الرَّحْمَنُ جَلَّ وَنَا ... دَاهُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كُلُّهم شَهِدُوا**): يعني: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يناديهم من فوقهم، ويشرف عليهم ويتجلى لهم، ويقول جَلَّ وَعَلَا: سلام عليكم، وكلهم -أي: أهل الجنة- شهدوا هذا النعيم العظيم.

(**يَرَوْنَهُ جَهْرَةً لاَ يَمْتَرُوْنُ كَمَا ... لِلشَّمسِ صَحْوًا يَرَى مَنْ مَا بِهِ رَمَدُ**): هذا مأخوذ من قوله: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر**»، وفي الحديث الآخر: «**كما ترون الشمس ليس بينكم وبينها حجاب**»، والتشبيه هنا للرؤية بالرؤية وليس للمرئي بالمرئي، والمعنى: أنكم سترون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رؤيةً حقيقيةً بأبصاركم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس بينكم وبينها حجاب أو سحاب.

قال: (**هُنَاكَ يَذْهَلُ كُلٌّ عَنْ نَعِيْمِهِمُ بِذَا النَّعِيْمِ**): أي: الذي هو رؤية الله، يذهل أهل النعيم -أهل الجنة-. (**عَنْ نَعِيْمِهِمُ**)؛ أي: النعيم الذي يحظون به ويكرمهم الله به في الجنة. (**بِذَا النَّعِيْمِ**)؛ أي: برؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي هو أكبر نعيم.

(**فَيَا نُعْمَى لَهُمْ حُمِدُوا**): أي: ما أعظمها نعمة! وما أجلَّها مِنةً! يكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها.

(**وَذَا لَهُمْ أَبَدًا فِي كلِّ جُمْعَتِهِمْ**): أي: أن هذه الزيارة تكون كل جمعة، وهذا جاء في حديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -لكن يحتاج إلى أن يُراجع-.

(**وَذَا لَهُمْ أَبَدًا فِي كلِّ جُمْعَتِهِمْ ... بُشْرَى وَطُوْبَى لِمَنْ فِي وَفْدِهِمْ يَفِدُ**): إي والله يعني: لمن يكون في هذا الوفد الكريم، وأكرم به من وفد، منَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى علينا جميعًا بذلك.

المتن:

قال -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى-: بابٌ: الإيمان بالقدر خيره وشره:

كَـذَاكَ بَالْقَـدَرِ الْمَقْـدُوْرِ نُـؤْمِنُ مِـنْ ** خَيْـرٍ وَشَـرٍّ وَذَا فِي دِيْنِنَـا عَمَـدُ
وَلاَ مُنَافَـاةَ بَـيْنَ الشَّـرْعِ وَالْقَـدَرِ الْـ ** مَحْتُومِ لَكِنْ أُوْلُوا الأَهْوَاءِ قَدْ مَرَدُوا
فَـإِنَّ الإِيمَـانَ بِالأَقْـدَارِ مُـرْتَبِطٌ ** بِالشَّـرْعِ ذَا دُوْنَ هَـذَا لَـيْسَ يَنْعَقِـدُ
إِيـاهُ نَعْبُـدُ إِذْعَانًـا لِشِـرْعَتِهِ ** بِـالنَّهْيِّ مُنْزَجِـرِيْنَ الأَمْـرَ نَعْتَمِـدُ
وَنَسْـتَعِيْنُ عَلـى كُـلِّ الأُمُـوْرِ بِـهِ ** إِذْ كُلُّهَـا قَـدَرٌ مِـنْ عِنْـدِهِ تَـرِدُ
أَحَـاطَ عِلْمًـا بِهَـا رَبِّـي وَقَـدَّرَهَا ** دِقًّا وَجِلًا وَمَنْ يَشْقَى وَمَنْ سَعِدُوا
مِـنْ قَبْـلِ إِيجَادِهَـا حَقًّـا وَسَـطَّرَهَا ** فِي اللَّـوْحِ جَفَّتْ بِهَا الأَقْلاَمُ وَالْمُدَدُ
كَيْفِيّـةٌ وَزَمَـانٌ وَالْمَكَـانُ فَـلاَ ** يَعْدُو امْرُؤٌ مَا قَضَاهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ
بِقَـوْلِ كُـنْ مَـا يَشَـا أَمْضَـى بِقُدْرَتِـهِ ** بِـالْخَلْقِ وَالأَمْـرِ ربُّ الْعَـرْشِ مُنْفَـرِدُ
وَقُـدْرَةُ الْعَبْـدِ حَقًّـا مَـعْ مَشِـيْئَتِهِ ** لَكِـنْ لِمَـا شَـاءَ مِنْـهُ اللهُ نَعْتَقِـدُ
إِذْ كَـانَ ذَاتًـا وَفِعْـلًا كُلُّـهُ عَـدَمٌ ** إِلاَّ إِذَا جَـاءَهُ مِـنْ رَبِّـهِ الْمَـدَدُ
مَـنْ يَهْـدِهِ اللهُ فَهُـوَ الْمُهْتَـدِي وَكَـذَا ** مَـنْ شَـاءَ إِضْـلاَلَهُ أَنّـى لَـهُ الرَّشَـدُ

الشرح:

قال -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى-: (**بابٌ: الإيمان بالقدر خيره وشره**). يذكر هنا -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى- الكلام على الأصل السادس من أصول الإيمان؛ وهو الإيمان بالقدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، من الآية:٤٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٨]، وقال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٤٠]، والآيات في هذا المعنى عديدة.

والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان أن نؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ قدر مقادير الخلائق، وكتب كل ما هو كائن، وأحصى جَلَّوَعَلَا كل شيءٍ عددًا، وأحاط بكل شيءٍ علمًا، وأن مشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى نافذة، وقدرته جَلَّوَعَلَا شاملة، وأنه خالق الخلق أجمعين سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ فهذا الإيمان بالقدر، وهو أصل من أصول الإيمان العظيمة، وأساس من أسسه المتينة.

وهُنا يشرح -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- شيئًا مما يتعلق بهذا الأصل العظيم، قال: (**كَذَاكَ بَالْقَدَرِ الْمَقْدُوْرِ نُؤْمِنُ ... مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَذَا فِي دِيْنِنَا عَمَدُ**): أي: هذا من أعمدة الدين ومن أصوله، فهو أصل من أصول الدين؛ مثل ما قال ابن أبي داود في [**الحائية**]:

وَبِالقَدَرِ المَقْدُورِ أَيْقِن فَإِنَّـه دعامـةُ ** عَقْــدِ الدِّيــنِ، وَالدِّيــنُ أفيــحُ

فهو عمود من أعمدة الدين، ودعامة من دعائمه، وأصلٌ من أصوله العظام، وكما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه"؛ فبدأ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- بهذا البيت في الإيمان بالقدر، نؤمن بالقدر المقدور من خيرٍ وشر، (**وَذَا**)؛ أي: ذا الإيمان. (**فِي دِيْنِنَا عَمَدُ**)؛ أي: أنه عمود من أعمدة الدين.

قال: (**وَلاَ مُنَافَاةَ بَيْنَ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ الْمَحْتُومِ ... لَكِنْ أُوْلُوا الأَهْوَاءِ قَدْ مَرَدُوا**): أي: أولوا الأهواء تمردوا على شرع الله، وافتاتوا عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في قدره وإلا ليس هناك منافاةٌ بين الشرع والقدر، ليس هناك منافاة بين أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى شرع الشرائع، وأمر بالتكاليف والأعمال، ونهى عن النواهي مع أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قدَّر ما هو كائن، ليس هناك منافاة بين الشرع والقدر، ليس هناك تنافي بين كون الله شرع الشرائع، وأمر العباد بالصلاة، بالصيام، بالحج، بالصدقة، نهاهم عن المحرمات، مع أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قدَّر كل ما هو كائن؛ ليس هناك منافاة بين الشرع -يعني: شرع الله للشرائع، وأمره للعباد بالأوامر ونهيه لهم عن النواهي- وبين أنه قدَّر ما هو كائن؛ فليس هناك منافاة.

الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سألوا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالوا: أنعمل في ما قُدِّر وقضي أو في أمر مستأنف؟ قال: «**فيما قُدِّر وقضي**»، قالوا: ففيمَ العمل؟ وفي رواية أخرى: ألا نتكل على القدر؟ قال: «**اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة يسَّره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسَّره الله لعمل أهل الشقاوة**»، وتلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل، من الآية:٥-١٠]، وهذا يبين أنه ليس هناك منافاة بين الشرع والقدر، «**أعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له**».

فليس هناك منافاة؛ بل العبد مُطالب بأن يعمل وأن يجتهد، وهو ميسر لما خُلق له، وليس أحدٌ يدري ما الذي قُدِّر له؟! جنة أو نار، نعيمٌ أو عذاب، حسن ختامٍ أو سوء ختام، نسأل الله العافية والسلامة. لا أحد يدري.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:١٠١]؛ لا يدري الإنسان هل هو ممن سبقت له الحسنى؟! هل هو ممن يختم له بالسعادة؟! لا يدري، الأمور بقدر نعم قدرها الله وكتبها، لكن لا يدري الإنسان ماذا قُدر له؛ هذا أمرٌ مُغيَّب.

والمطلوب من العبد أن يجاهد نفسه، ويسأل ربه ويُلح عليه، ويسأله الثبات، ويسأله الهداية، ويسأله التوفيق؛ أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرًا، يدع الله ويجاهد نفسه بطاعة الله؛ فهذا هو معنى قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له**».

فإذًا كما قال الناظم: (**وَلاَ مُنَافَاةَ بَيْنَ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ الْـمَحْتُومِ** -أي: المكتوب المقدر- **لَكِنْ أُوْلُوا الأَهْوَاءِ قَدْ مَرَدُوا**)؛ أي: مردوا على شرع الله فلم يرضخوا للأوامر، ولم ينتهوا عن النواهي.

وبعضهم يحتج على شركه وعلى باطله وعلى معاصيه بالقدر؛ وهذا كله من التمرد على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يوضح الناظم يقول: (**فَإِنَّ الإِيمَانَ بِالأَقْدَارِ مُرْتَبِطٌ ... بِالشَّرْعِ ذَا دُوْنَ هَذَا لَيْسَ يَنْعَقِدُ**): فالشرع والقدر بينهما ارتباط؛ الشرع هو ما أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرعًا وديناً، والقدر هو ما أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كونًا وقدرًا، فالشرع والقدر بينهما ارتباط، (**فَإِنَّ الإِيمَانَ بِالأَقْدَارِ مُرْتَبِطٌ ... بِالشَّرْعِ ذَا دُوْنَ هَذَا لَيْسَ يَنْعَقِدُ**)؛ والشرع هو الذي أطلعنا على هذه الأصول وعلى هذه الحقائق، وأن الأمور كلها بقضاء الله وقدره، وعرَّفنا بمراتب القدر ومراتب التقدير؛ كل هذه المسائل لم نعلمها إلا من خلال شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال:

إِيـــاهُ نَعْبُـــدُ إِذْعَانًـــا لِشِـــرْعَتِهِ ** بِـالنَّهْيِّ مُنْزَجِـرِيْنَ الأَمْـرَ نَعْتَمِـدُ

وَنَسْـتَعِيْنُ عَلـى كُـلِّ الأُمُـوْرِ بِـهِ ** إِذْ كُلُّهَـا قَـدَرٌ مِـنْ عِنْـدِهِ تَـرِدُ

هذا تأصيل المسألة، وتوضيح عدم التنافي بين الشرع والقدر، وبيان الواجب العملي الذي ينبغي عليه أن يكون المؤمن بالقدر، وبيان الناحية التطبيقية في هذه المسألة؛ وهذا كلام عظيم جدًا، ومستمد من قول النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له**»؛ جملتان: «**أعملوا**» أي: صلُّوا، اعبدوا، صوموا، تصَدَّقوا، بروا، أحسنوا.. إلى آخره، وأيضًا «**أعملوا**»؛ يدخل تحتها: تجنبوا الحرام، ابتعدوا عن الآثام..؛ كلها داخلة تحت قوله: «**أعملوا**».

وقوله: «**فكلٌ ميسر لما خلق له**»؛ هذا باب الاستعانة وطلب العون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتوفيق؛ ولهذا الأصل في هذه المسألة أن تعمل وتستعين، تُجاهد نفسك على العمل، وتطلب العون من الله. لخص هذا المعنى في بيتين.

البيت الأول: يتعلق بقوله: «**أعملوا**»؛ قال: (**إياهُ نَعْبُدُ إِذْعَانًا لِشِرْعَتِهِ ... بِالنَّهْيِّ مُنْزَجِرِيْنَ الأَمْرَ نَعْتَمِدُ**)؛ نعمل هذه طريقتنا، نُجاهد أنفسنا على العمل، على العبادة، على الإذعان، على الخضوع، على الانتهاء عن النواهي، على الامتثال للأوامر والاعتماد لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نُجاهد أنفسنا على ذلك.

البيت الثاني: «**فكلٌ ميسر لما خُلق له**»؛ هذا إذًا يتطلب منا زيادةً على العمل، أن نستعين، نطلب العون من الله كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**»، وقال الله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود، من الآية:١٢٣]. (**وَنَسْتَعِيْنُ عَلى كُلِّ الأُمُوْرِ بِهِ ... إِذْ كُلُّهَا قَدَرٌ مِنْ عِنْدِهِ تَرِدُ**): أي: أمور مقدرة مكتوبة، قدرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العباد.

(**أَحَاطَ عِلْمًا بِهَا رَبِّي وَقَدَّرَهَا ... دِقًّا وَجِلًا وَمَنْ يَشْقَى وَمَنْ سَعِدُوا**): (**أَحَاطَ عِلْمًا**) هذه مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر؛ الإيمان بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحاط علمًا بكل شيء؛ علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهنا يذكر هذه المرتبة من مراتب القدر وهي علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المحيط الشامل، ولا يؤمن بالقدر من لا يؤمن بعلم الله المحيط الشامل.

(**أَحَاطَ عِلْمًا بِهَا رَبِّي وَقَدَّرَهَا**): أي: قضاها على العباد وقدرها.

(**دِقًّا وَجِلًا**): أي: دقيق الأمور وجليلها، صغيرها وكبيرها، قدَّر كل شيء، والأمر كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذقنك هكذا بقدر"، كل شيء بقدر. وفي الحديث الصحيح في صحيح مسلم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس**». كل شيء بقدر.

(**دِقًّا وَجِلًا وَمَنْ يَشْقَى وَمَنْ سَعِدُوا**): أي: أهل الشقاء شقاءهم بقدر، وأهل السعادة سعادتهم بقدر؛ قال الشافعي -رحمة الله عليه-:

مَـا شِـئْتَ كَـانَ وَإِنْ لَـمْ أَشَـأْ ** وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَـمْ تَشَـأْ لَـمْ يَكُـن
خَلَقْتَ العِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ ** وَفِي العِلْـمِ يَجْـرِي الفَتَى وَالمُسِـن
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَـذَا خَـذَلْتَ ** وَهَـــذَا أَعَنْـــتَ وَذَا لَـــمْ تُعِـــن
فَمِـنْهُم شَـقِيٌّ وَمِـنْهُم سَـعِيدٌ ** وَمِـــنْهُم قَبِـــيحٌ وَمِـــنْهُم حَسَـــن

كلُ هذا بقدر، كل هذا قدَّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكتبه جَلَّ وَعَلَا على عباده.

(**مِنْ قَبْلِ إِيجَادِهَا حَقًّا وَسَطَّرَهَا**): قدَّرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من قبل إيجادها؛ إن الله كَتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، حتى مجلسنا هذا كُتب في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق رب العالمين السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

(**مِنْ قَبْلِ إِيجَادِهَا حَقًّا وَسَطَّرَهَا فِي اللَّوْحِ**): أي: في اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج، من الآية:٧٠]، وفي الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أول ما خلق الله القلم قال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»؛ فهو جَلَّ وَعَلَا سطرها حقًّا في اللوح المحفوظ.

(**جَفَّتْ بِهَا الأَقْلاَمُ وَالْمُدَدُ**): وفي الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ... قال في آخره – جفت الأقلام ورُفعت الصحف**»؛ هذا معنى قوله هنا: (**جَفَّتْ بِهَا الأَقْلاَمُ**)؛ أي: بما هو كائن إلى يوم القيامة.

(**كَيْفِيَّةٌ وَزَمَانٌ وَالْمَكَانُ**): كل هذا جفت به الأقلام. (**كَيْفِيَّةٌ وَزَمَانٌ وَالْمَكَانُ**)؛ يعني: الأمور التي قدرها الله جفت الأقلام بها من حيث كيفيتها، ومن حيث زمانها، ومن حيث مكانها؛ جفت الأقلام بما هو كائن من حيث الكيفية و من حيث الزمان و من حيث المكان، فالشيء الذي قدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكتبه في اللوح المحفوظ يقع في الوقت الذي شاء، وفي الكيفية التي شاء، وفي المكان الذي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شاءه.

(**فَلاَ يَعْدُو امْرُؤٌ مَا قَضَاهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ**): يعني: لا يتجاوز أحدٌ الشيءَ الذي قضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**بِقَوْلِ كُنْ مَا يَشَا أَمْضَى بِقُدْرَتِهِ ... بِالْخَلْقِ وَالأَمْرِ ربُّ الْعَرْشِ مُنْفَرِدُ**): (**بِقَوْلِ كُنْ مَا يَشَا أَمْضَى بِقُدْرَتِهِ**) أي: كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس، من الآية:٨٢]، فهو جَلَّ وَعَلَا بـ(كن) ما يشاء أمضاه بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالذي يشاءه يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: كن؛ فيكون كما شاء.

(بِقَوْلِ كُنْ مَا يَشَا أَمْضَى بِقُدْرَتِهِ ... بِالْخَلْقِ وَالأَمْرِ ربُّ الْعَرْشِ مُنْفَرِدُ): أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منفردٌ بالخلق ومنفردٌ بالأمر، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٥٤]، فهو منفردٌ بالخلق لا شريك له في الخلق، ومنفردٌ بالأمر. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الشورى، من الآية:٢١]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٤٠]. فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منفرد بالخلق لا شريك له، ومنفردٌ بالأمر لا شريك له، تفرد بهذا وتفرد بهذا، تفرد بخلق المخلوقات، وهو المتفرد بالأمر يشرع ما يشاء، ويقضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يريد.

(وَقُدْرَةُ الْعَبْدِ حَقًّا مَعْ مَشِيْئَتِهِ): يعني: العبد له قدرة وله مشيئة، فنحن نؤمن بأن العبد له قدرة وله مشيئة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [سورة التكوير، من الآية:٢٨]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف، من الآية:٢٩]، العبد له مشيئة؛ ولهذا خُوطب بالأوامر والنواهي؛ لأن من لا مشيئة له لا يُخاطب بالأوامر والنواهي. لا يقال: اعمل لمن لا مشيئة له. فالمخاطبة بالأوامر والنواهي دليل على أن العبد له مشيئة. فالعبد له قدرة وله مشيئة، لكن ماذا؟

يقول: (وَقُدْرَةُ الْعَبْدِ حَقًّا مَعْ مَشِيْئَتِهِ ... لَكِنْ لِمَا شَاءَ مِنْهُ اللهُ نَعْتَقِدُ): هذا أخذه من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير، من الآية:٢٩]، مثل قوله الشافعي قبل قليل:

مَـــا شِـــئْتَ كَـــانَ وَإِنْ لَـــمْ أَشَـــأْ ** وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَـمْ تَشَـأْ لَـمْ يَكُـن

أي: أن العبد له مشيئة لكنها تحت مشيئة الله، هذا معنى قول الناظم: (لَكِنْ لِمَا شَاءَ مِنْهُ اللهُ نَعْتَقِدُ).

(نَعْتَقِدُ): أي: مشيئة العبد لما شاءه الله منه، أما إذا لم يشئه الله منه ما تنعقد، أحد الأعراب قيل له: بما عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وحَل الهمم.

فالشاهد: أن مشيئة العبد لا تنعقد إلا إذا قدَّر له الله عَزَّوَجَلَّ وشاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. (لَكِنْ لِمَا شَاءَ مِنْهُ اللهُ نَعْتَقِدُ)؛ أي: نعتقد حصوله، وإذا كان على القراءة، على قراءة التصحيف التي حصلت مني، (لَكِنْ لِمَا شَاءَ مِنْهُ اللهُ نَعْتَقِدُ)؛ يعني: تنعقد المشيئة إذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شاء ذلك.

لكن النظم قال: (لَكِنْ لِمَا شَاءَ مِنْهُ اللهُ نَعْتَقِدُ): أي: نعتقد أن مشيئة العبد تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**إِذْ كَانَ ذَاتًا وَفِعْلًا كُلُّهُ عَدَمٌ**): الإنسان ذاتًا وفعلًا كلُّه عدم؛ قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [سورة الإنسان، من الآية:١]؛ فالإنسان كله عدم، فلما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخلق له مشيئة؛ فمشيئته تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يمكن أن يقع منه شيء إلا شيءٌ شاءه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.(**إِذْ كَانَ ذَاتًا وَفِعْلًا**)؛ أي: الإنسان.(**كُلُّهُ عَدَمٌ**).

(**إِلاَّ إِذَا جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ الْمَدَدُ**): إذا جاءه المدد والعون من الله يقع الأمر ويتحقق.

ثم ختم في بيان أن الأمر كله بيد الله؛ قال:

(**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَهْوَ الْمُهْتدي وَكَذَا ... مَنْ شَاءَ إِضْلاَلَهُ أَنّى لَهُ الرَّشَدُ**): فالهداية والضلال بيد الله؛

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٢٢]،

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٨]،

فالهداية بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [سورة الكهف، من الآية:١٧]. (**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَهْوَ الْمُهْتدي وَكَذَا ... مَنْ شَاءَ إِضْلاَلَهُ أَنّى لَهُ الرَّشَدُ**): يعني من شاء وكتب وقدر عليه الضلال. (**أَنّى لَهُ الرَّشَدُ**)؛ من أين السبيل أن تأتيه الهداية أو يأتيه الرشاد.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُجمل أركان الإسلام:

هَـذَا وَقَـدْ بُنِـيَ الإِسْـلاَمُ فَـادْرِ عَلَـى ** خَمْسٍ دَعَائِمَ فَـاحْفَظْ إِنَّهـا العُمُـدُ
هِـيَ الشَّـهَادَةُ فَـاعْلَمْ وَالصَّـلاَةُ مَـعَ الـزَّ ** كَاةِ وَالصَّـوْمِ ثُـمَّ الحَـجِّ فَاعْتَمِـدُوا
وَذَرْوَةُ الـدِّيْنِ أَعْلاَهَـا الْجِهَـادُ حِمَـىً ** لِحَقِّـهِ وَلأَهْـلِ الْكُفْـرِ مُضْـطَهَدُ

الشرح:

ثم ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- هنا مُجمل أركان الإسلام، لعلنا نذكر أن الناظم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- في بداية المنظومة قال:

وَبَعْدُ ذِي فِي أُصُوْلِ الدِّيْنِ (جَوهَرةٌ ** فَرِيْـدَةٌ) بِسَـنَا التَّوحِيْـدِ تَتَّقِـدُ
بِشَرْحِ كُلِّ عُرَى الإِسْلامِ كَافِلةٌ ** وَنَقْضِ كُـلِّ الـذي أَعْـداؤهُ عَقَـدُوا

فهو عازم على أن يشرح كل عُرى الإسلام في هذه المنظومة، ولهذا أتى هنا إلى الكلام على مجمل أركان الإسلام.

قال: (**هَذَا وَقَدْ بُنِيَ الإِسْلاَمُ فَادْرِ عَلَى ... خَمْسٍ دَعَائِمَ فَاحْفَظْ إِنَّها العُمُدُ**): أي: أعمدة الدين، أعمدة الإسلام؛ كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام**»، وجاءت أيضًا هذه الخمس في حديث جبريل المشهور، وجاءت في أحاديث أخرى عديدة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فهي أعمدة للدين.

والـدينُ لاَ يُبْتَنَـى إِلاَّ بأعمـدةٍ ** ولا عمادَ إذا لم تُرسَ أوتـادُ

فهذه أعمدة للدين عليها قيامُه.

قال: (**هِيَ الشَّهَادَةُ**)؛ أي: هذه الأعمدة والدعائم. (**هِيَ الشَّهَادَةُ**)؛ أي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، (**فَاعْلَمْ**)؛ أي: اعلم ذلك. وقد قال الله في القرآن: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد، من الآية:١٩].

(**هِيَ الشَّهَادَةُ فَاعْلَمْ**): وهذا الأمر -اعلم- يؤتى به بين يدي الأمور العظيمة المهمة التي يحتاج لفت انتباه الإنسان لها، واستدعاء الاهتمام بها.

(**وَالصّلاَةُ مَعَ الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ ثُمَّ الحَجِّ فَاعْتَمِدُوا**): أي: اعتمدوا هذه الخمس أركانًا الإسلام كما جاء ذلك مبينًا في حديث الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: (**وَذِرْوَةُ الدِّيْنِ أَعْلاَهَا الْجِهَادُ حِمَىً لِحَقِّهِ وَلأَهْلِ الْكُفْرِ مُضْطَهَدُ**): يشير هنا إلى مكانة الجهاد ومنزلته العلية، وهذا مُستفاد من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومن أحاديث الأربعين للإمام النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-؛ قلت: يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «**لقد سألت عن عظيم، ويسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام**»، ذكر هذه المباني الخمس في جواب سؤال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن عمل يدخله الجنة، ويباعده عن النار، فذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه الخمس.

وبهذا يُعلم أن من ضبط هذه الخمس دخل الجنة؛ ولهذا في حديثٍ لما ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الخمس لأعرابي أمسك بيده قال: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**دخل الجنة إن صدق**»، وفي

لفظ قال: «**أفلح إن صدق**»؛ فهذه الخمس إذا فعلها الإنسان دخل الجنة وتباعد عن النار، وفي الحديث الآخر قال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، أأدخل الجنة؟ قال: «**نعم**».

فالشاهد: أن هذه الخمس إذا واظب عليها العبد وتجنب المحرمات؛ كان من المقتصدين، والمقتصد يدخل الجنة بدون حسابٍ ولا عذاب.

لكن هناك درجة أعلى من هذا! أعلى من درجة المقتصد؛ ولهذا فإن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما ذكر لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هذه الخمس التي يكون بها دخول الجنة والمباعدة من النار أشار إلى أعلى من ذلك، وهو المسابقة والمنافسة في الخيرات ونيل علو الدرجات في الجنة؛ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟**»؛ يعني: زيادةً على هذه المباني العظيمة التي يحصل بالعناية بها دخول الجنة والنجاة من النار، «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل**»، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:١٦-١٧].

ذكر هنا عندما قال: أبواب الخير، ذكر الصوم، وذكر الصدقة، وذكر الصلاة، أليس كذلك، والصلاة من جوف الليل ؛ هذه الثلاث نوافل ليست فرائض، هذه الثلاث المذكورة هنا نوافل و ليست فرائض، الفرائض ذُكرت قبل -في مباني الإسلام-. لكن التي ذكرت بعد أبواب خير للمنافسة.

فيكون النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أجاب معاذ عن سؤاله: دلني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؛ ذكر له الخمس، ثم نقله إلى منزلة أعلى وأرفع وهي المنافسة في علو الدرجات، زائد على مجرد دخول الجنة والنجاة من النار، المنافسة في علو الدرجات في الجنات.

افتتح ذلك بقوله: «**ألا أدلك على أبواب الخير**»؛ فذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الصيام -والمراد بالصيام النفل «**الصيام جُنة**» والصدقة التنفل بالصدقات، والصلاة -صلاة الليل وهي نافلة-؛ قال تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٧٩]؛ فيتنفل بهذه النوافل طلبًا لعلو الدرجات ومسابقةً في الخيرات، فيكون بذلك من عباد الله المقربين؛ «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**».

ثم قال له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه**»: أي: أعلاه.

قلت: بلى يا رسول الله! قال: «**رأس الأمر الإسلام**»؛ رأس الأمر التوحيد والإخلاص والإذعان والانقياد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ هذا رأس الأمر الذي عليه يُبنى دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك؛ هذا رأس الأمر، وإذا وُجدت الأعمال بدون الرأس لا قيمة لها، عملٌ بلا توحيد كجسدٍ بلا رأس.

«**وعموده الصلاة**»: وهذا فيه دليل على كفر تارك الصلاة.

«**وذروة سنامه**»؛ -أي: أعلى سنامه- الجهاد في سبيل الله. وهذا قول الناظم هنا: (**وَذَرْوةُ الدِّيْنِ أَعْلاَهَا الْجِهَادُ**)؛ ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله.

ثم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه وقال: «**كف عليك هذا**»، قلت: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم** -أو قال: على مناخرهم- **إلا حصائد ألسنتهم**».

قال: (**وَذَرْوةُ الدِّيْنِ أَعْلاَهَا الْجِهَادُ حِمَىً لِحَقِّهِ**): أي: حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده من التوحيد والعبادة والطاعة والامتثال. (**وَلأَهْلِ الْكُفْرِ مُضْطَهَدُ**).

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: جامع وصف الإحسان:

هَـذَا وَالإِحْسَـانُ فِي سِـرٍّ وَفِي عَلَـنٍ ** أَصْلٌ وَمَعْنَاهُ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى يَرِدُ

أَنْ تَعْبُـدَ اللهَ بِاسْتِحْضَـارِ رُؤْيَتِـهِ ** إِيـاكَ ثُـمَّ كَمَـنْ إِيـاهُ قَـدْ شَـهِدُوا

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: (**جامع وصف الإحسان**).

قال: (**هَذَا وَالإِحْسَانُ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ ... أَصْلٌ وَمَعْنَاهُ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى يَرِدُ**): أي: قد ورد معنى الإحسان في السر والعلن عن خير الورى؛ حيث قال:

(**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ بِاسْتِحْضَارِ رُؤْيَتِهِ ... إياكَ ثُمَّ كَمَنْ إياهُ قَدْ شَهِدُوا**): هذا هو الإحسان؛ وفي حديث جبريل: «**أخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

(**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ بِاسْتِحْضَارِ رُؤْيَتِهِ إياكَ ثُمَّ كَمَنْ إياهُ قَدْ شَهِدُوا**)، يعني يشير كما ذكر بعض أهل العلم أن الإحسان على درجتين:

- درجة أن تعبد الله مستحضرًا رؤيته -قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»-؛ يعني إن لم تصل إلى هذه الدرجة استحضر أنه يراك ومطلع عليك. استحضر أنه جَلَّ وَعَلَا يراك ومطلع عليك. (**أَنْ تَعْبُدَ**

اللهَ بِاسْتِحْضَارِ رُؤْيَتِهِ إياكَ ثُمَّ كَمَنْ إياهُ قَدْ شَهِدُوا)؛ الأولى: أن تعبد الله باستحضار رؤيته، أن تستحضر رؤية الله لك، وهذا يؤخذ من الحديث في قوله: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

(ثُمَّ كَمَنْ إياهُ قَدْ شَهِدُوا)؛ هذا يؤخذ من قوله في الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»؛ فذكر الدرجتين.

مرة ثانية: الحديث قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، أشار إلى هذين المعنيين في الإحسان بقوله: **(أَنْ تَعْبُدَ اللهَ بِاسْتِحْضَارِ رُؤْيَتِهِ إياكَ)**؛ وهذا مأخوذ من قوله: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

والثانية: **(ثُمَّ كَمَنْ إياهُ قَدْ شَهِدُوا)**؛ هذا مأخوذ من قوله في الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

والإحسان أعلى مراتب الدين وأرفع درجاته، وهو الإتقان والإجـادة ـ المحسن هو الذي أتقن وأجاد العمل، وأتى به على أتم صوره وأكمل أحواله، وهذا أعلى ما يكون في الدين.

والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث جبريل ذكر مراتب الدين الثلاثة -الإسلام والإيمان والإحسان- وذكرها تدرجًا باعتبار ما يكون؛ فأول ما يبدأ الإنسان دخولًا في الدين الإسلام؛ فإذا رسخت قدمه فيه وقوي وتمكن الإيمان في قلبه ارتقى إلى درجة الإيمان، وإذا زاد في الإتقان والإجادة والإحسان في العمل والعبادة والتقرب إلى الله؛ ارتقى إلى درجة الإحسان.

ولهذا قال العلماء: "كلُّ محسنٍ مؤمنٌ مسلمٌ، وكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، وليس كلُّ مؤمنٍ محسنًا؛ لأن درجة الإحسان أرفع، ثم درجة الإيمان، ثم درجة الإسلام.

وقد وضح هذا بعض السلف بمثال؛ فوضع ثلاث دوائر -دائرة صغرى ثم دائرة أكبر منها محيطة بها ثم دائرة ثالثة محيطة بالدائرتين-، فقال عن الدائرة الصغرى: "هذا الإحسان، ثم تليها الإيمان، ثم تليها الإسلام، فالذي في دائرة الإحسان، هو أيضًا في دائرة الإيمان وفي دائرة الإسلام، فإذا خرج من دائرة الإحسان كان في دائرة ماذا؟ الإيمان، فكان حينئذٍ مؤمنًا مسلمًا؛ لأن الذي في دائرة الإيمان هو أيضًا في دائرة الإسلام الأوسع؛ فإذا خرج من الإيمان -نُفيَ عنه الإيمان، وليس المراد نفي الإيمان أصله، وإنما المراد كماله الواجب ـ يصبح في دائرة ماذا؟ الإسلام، والذي في دائرة الإسلام هو خارج عن دائرة الإيمان ودائرة الإحسان؛ ولهذا قالوا: "كل محسنٍ مؤمنٍ مسلم، وكل مؤمن مسلم، وليس العكس"، ومن خرج من دائرة الإسلام فليس بعد الإسلام إلا الكفر.

والله أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على عبد الله ورسوله، نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.